القصص

١ – رسالة إلى جار عالم . ٢ – تريد النوم. ٣ – من مذكرات حالم .
٤ – صبى شرير . ٥ – فانكا ٦ – فى الحمام .

رسالة إلى جارٍ عالم

جارى العزيز مكسيم . . جُد علىّ بالمعذرة لنسيانى بقية اسمك ، ولا تؤاخذنى ، أنا الهرم العتيق والمخلوق الغبى ، بجرأتى على إزعاجك بهذا الكتاب الذى ينطوى على الثرثرة ، والسخف .

مضت سنة كاملة على تفضلك بسكنى هذا الجزء من العالم ، مجاوراً لى – أنا الذبابة الحقيرة – لكننى لم أتعرف إليك طوال تلك السنة ، كما أنك ما زلت تجهلنى تماماً ، فهل تأذن لى الآن ، أيها الجار العزيز ، بأن أتعرف إليك ، بواسطة هذه الرسالة ، وأن أصافح يدك العالمة ! . . وأرحب بمقدمك من بطرسبورغ ، إلى منطقتنا الرّيفية هذه ، التى لا تليق بمقامك .

لا أذيع سرّاً ، إن قلت لك : إننى كنت دائم التفكير ، فى كيفية الوصول إليك ، لأنّ العلوم هى أمنا المبجلة ، وهى والمدنية صنوان ، وهذا ما دعانى لأن أحترم ذلك الرّهط من الناس ، الذين ذاع صيتهم ، وأحيطوا بهالات المجد ، وأكاليل الغار ، وتحلوا بالأوسمة والأوشحة ، وراحت أسماؤهم تدوى كالرعد فى جميع أرجاء العالم المرئى ، وغير المرئى .

إننى أحب الفلكيين والشعراء والكتاب والطبيعيين والكيماويين وغيرهم من كهنة العلم الذين تعتبرُ نفسك أحدهم بفضل ما قدمتهُ من براهين

واقعية وما توصلت إليه من نتائج وثمرات وما وضعته من مصنفات ومؤلفات إبان جلوسك بين أدواتك وموازينك وكتبك الأجنبية المحلاة بالصور المغرية . .

لقد زارني مؤخراً في أملاكي : أو في أنقاضي وخرائبي ، جاري السيد جيراسيموف ؛ ولما تناولنا الحديث عنك ، هاجم آراءك بصدد منشأ البشر ؛ وغير ذلك من مظاهر العالم المرئي ، وثار على جوك الفكري النير . وعلى أفقك الذهني الرائق ، إلا أنني لم أوافقه على اعتراضاته ، لأنني أحيا بالعلم وأتغذى بلبانه ؛ ذلك العلم الذي هيأته العناية الإلهية للجنس البشري ؛ ليتمكن بمعونته من استخراج المعادن واللآلئ من بطون الأرض .

ومع ذلك فالمعذرة يا جاري العزيز إذا أقدمت — أنا الحشرة التي لا تكاد تراها العين — ودحضت بعض آرائك . .

أفادني جيراسيموف ، أنك وضعت كتاباً عرضت فيه مسائل على درجة عظيمة من الأهمية ، تدور كلها حول كيان الإنسان الفطري الذي عاش قبل الطوفان . لقد تكرمت وذكرت في كتابك هذا أن الإنسان تحدّر من فصائل المارموزيت ، والأورانغ أوتانغ ، وهلمّ جرًّا . فهل لك أن تعذرني إن خالفتك في هذه النقطة الهامة ؛ وأدليت لك بحجج توقفك عند حدك ؟

اعلم أننا — نحن بني الإنسان — سادة الكون ، وأنبه جميع الأحياء التي تدب على الأرض ؛ فلو كان مردنا إلى القردة الجاهلة البلهاء ، لكان لنا أذناب ، وأصوات وحشية ، ولكان النَّوَرُ يطوفون بنا في المدن والقرى ، فيتلهى بعضنا برؤية بعض ونحن نرقص ، أو نجلس القرفصاء في أقفاصنا الحديدية !

قل لي يا جاري العزيز : هل تكتسي أجسامنا بشعر القردة ؟ . .

أو لا نتدثر بملابس حُرِم منها ذلك الحيوان ؟ . . ثم . . هل كان بمقدورنا أن نحب المرأة لو فاحت منها روائح كالتي تفوح في حديقة الحيوانات ؟ فلو كان أسلافنا قد تحدروا من القردة . فهل من المعقول أن يدفنوا في مقابر مسيحية ؟ . . إن جدي الأكبر أمفروسي الذي عاش في أيام السيادة البولونيّة ، دفن إلى جانب الراهب الكاثوليكي واكيم شوستاك ، ولم يدفن بوصفه قرداً !

أستميحك العذر ، لأنني تدخلت في شئونك العلمية ، وفرضت عليك آرائي الهمجية الخرقاء . هذه الآراء ، التي إذا اطلع عليها العلماء والمثقفون ، فسرعان ما تدخل إلى معدهم قبل رؤوسهم ! . . ولكن ما عساي أن أعمل ، وأنا لا أقدر على الصمت إذا ما رأيت العلماء لا يفكرون كما ينبغي عليهم أن يفكروا .

وأحاطني « جيراسيموف » علماً ، بأن لك نظرية خاطئة بصدد القمر أيضاً . آمل ألاّ تهزأ مني — أنا الرّجل الهرم — إذا ما لمستَ سخفاً فيما أكتبه لك .

أجل ! تفترض أنت أنّ القمر تسكنه قبائل بشرية تنتشر في جميع أنحائه ، لكنني أجرؤ وأدحض افتراضك هذا بقولي : لو أن القمر مأهول ، لسترت بيوته ، ومزارعه عنا نوره الساحر الأخاذ ! . . ولانقطعت عنا الأمطار ، وآل مصيرنا إلى الهلاك ، لأن المطر يسقط من علٍ على الأرض ، وليس على العكس ، ولوقع سكانه على الكرة الأرضية ، وهذا أمر لم يحدث قط . . ثم ألا يغمرنا القمر بأقذاره لو كان مسكوناً ؟ . . وهل يتمكن ساكنوه من البقاء على سطحه إن أحسوا وجوده ليلا فقط وافتقدوه نهاراً ؟ . . ثم هل تسمح حكومات الأرض للناس بسكنى القمر ، ولا تخشى من أن يصبح مأوى للعصاة والمجرمين ؟ . .

وقال لي « جيراسيموف » أيضاً : إنك ذكرت في مؤلفك الثمين أن

فى الشمس ، وهى أعظم كوكب منير : كلفاً أو بقعاً سوداء : غير أنى أنفى ذلك نفياً قاطعاً . وأسألك : كيف تمكنت من رؤية تلك البقع ، أنت عاجز عن التطلع إلى قرص الشمس ؟ . . ثم ما الفائدة من تلك البقع ؟ ومن أية مادة مائعة تتكون ؟ . . أولا تجففها حرارة الشمس ؟ ! يخيل لى أنك تعتقد أيضاً بوجود أسماك تسبح فى تلك البقع ! سامحك الله . .

أى جارى العزيز . هل لك أن تعذرنى — أنا الغبى — لأننى حاولت تحديد بعض المسائل العلمية بمثل هذه الترهات ؟ ألا أغفر لى مواقفى هذه ، وتأكد بأننى قد كرست حياتى لخدمة العلم فغدت أجنحته بمثابة ستار يقوم ما بين عينى ، ونزوات المال .

إنّ كل اكتشاف يكتشفه العلماء ، يسبب لى آلاماً كالآلام الناتجة عن وخز المسمار فى الظهر ! . . وبالرغم من جهالتى — أنا الملاك القديم — فإننى أتابع أعمالى فى حقلى العلوم والكشف ، وأصنعها بيدى ! وأملأ رأسى التافه ، وجمجمتى المتوحشة ، بمجموعة من الأفكار الهامة ، والآراء العظيمة .

إن أمنا (الطبيعة) هى سفر جليل علينا أن نطالعه ونشاهده ! . . أخبرك أننى توصلت إلى اكتشافات عديدة بمجهودى الخاص ، اكتشافات لم يسبقنى إليها أحد . . وأقول ، غير متبجح ، إننى حصلت على معارفى بجهدى وعرق جبينى ، لا بثروة والدى ، فثروة الآباء كثيراً ما تقضى على الأبناء بما توفره لهم من جاه عريض ، ومساكن ذات ستة طوابق ، وخدم ، وأجراس كهربائية . فهناك ما اكتشفه عقلى الرخيص :

اكتشفت أنّ شمسنا الكبيرة — المتدثرة بثوب من الأشعة النارية — تطلع على الكون فى أحد الأصباح ، ومرة فى السنة فقط ، بمجموعة نفيسة من الألوان المتناسقة ، فتخلع عليه بريقاً عجيباً ، يأخذ بمجامع القلوب . . ثم توصلت إلى اكتشاف آخر : يتساءل الإنسان كثيراً عن

سبب قصر النهار فى فصل الشتاء ، وطول الليل فيه ، فى حين تنعكس الآية فى فصل الصيف . . .

فتفسير ذلك ، أن النهار يقصر شتاءً لأنه يتقلص من البرد ، مثل كل الأشياء المرئية ، وأن الليل يطول ، لأنه يتمدد بفعل نيران المواقد ، ومصابيح البيوت والشوارع !

واكتشفت أيضاً أن الكلاب فى فصل الربيع تأكل النباتات مثل الخراف . . وأن القهوة تؤذى أصحاب الأمزجة الدموية من الناس ، فهى تحدث فى رؤوسهم دواراً ، وفى عيونهم غبشاً . . .

وتوصلت إلى اكتشاف أشياء كثيرة أخر ، مع أننى لا أحوز شهادات ثانوية أو جامعية .

تعالَ إلى بيتى — يا جارى العزيز — فعسى أن نكشف شيئاً معاً ، وندرس الآداب معاً ، وأتلقى عليك دروساً شتى فى الرياضيات .

قرأت منذ أمد غير بعيد أن أحد العلماء الفرنسيين وجد أن هيئة الأسد لا تشبه أبداً ملامح الإنسان ! . . وهذه نظرية لها خطورتها ، أترك التحدث عنها إلى أن نلتقى فى القريب العاجل . فتكرم واحضر إلى بيتى ، ولك أن تحضر غداً مثلا . حقاً إننا الآن صائمون ، ممتنعون عن أكل اللحوم ، لكننا سنهيئ لك على كل حال أكلا متواضعاً ، وأعلمك أن ابنتى نتاشينكا ترجوك أن تجلب لها معك بعض الكتب العميقة الأفكار ، فهى فتاة متحررة تعتقد أنها تنفرد فى العقل والإدراك ، وأن كل ما حولها من الناس ليسوا إلا جهلة أغبياء .

سيزورنى بعد أسبوع أخى إيڤان ، فهو رجل طيب القلب ، لكنه ملكىّ النزعة ، ولا يميل إلى العلوم .

وسيحمل رسالتى هذه إليك خادمى تروفيم ، وسيسلمك إياها فى تمام الساعة الثامنة مساءً ، فإن جاءك متأخراً ، فاعلم أنه عرّج على خمّارة ،

واصفعه على وجهه صفعة أستاذ قدير !

لست أنا أول من يبتكر عادة التزاور بين الجيران ، ولا آخرهم ، ولذا ، ألحُّ عليك لتزورنى فاحضر ، واجلب معك كتبك وأدواتك ، لقد كان بودى أن آتى بنفسى إليك ، لكننى جدّ خجول ، وتنقصنى الجرأة الأدبية . .

أخشى أن أكون — أنا الرجل الرّجس — قد أزعجتك برسالتى هذه ، فمعذرة .

وتفضل بقبول احترامات جاويش الفيلق القوزاقى المتقاعد ، والمتحدر من صلب الأشراف » .

جارك

واسيلى سيمى بولاتوف

تُريد النوم

كان الوقت ليلاً . . .

وكانت الخادمة ڤاركا . وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها تهز سرير طفل مولاها ، وتغنى له أغنية بصوت خافت أشبه بالهدير ، تقول فى مطلعها :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

وكان فى إحدى زوايا الغرفة أيقونة ، علُق فوقها قنديل أخضر ترك زجاجه ظلا داكناً على السقف ، وامتد فى الغرفة أيضاً حبل نُشرت عليه لفائف الطفل وسروال أسود كبير وقد خلعت هذه الأشياء على الموقد . وسرير الطفل والفتاة معاً ظلا طويلا ، وكان كلما اهتز القنديل اهتز معه ظله على السقف . وتحرك ظل اللفائف والسروال . وكان الهواء فى الغرفة محتبساً ، فانبعثت منها رائحة الحساء ممتزجة برائحة مصنوعات من الجلود .

طال الوقت على الطفل وهو يبكى ويصرخ حتى بُح صوته وخارت قواه . أما ڤاركا فعبثاً كانت تحاول النومْ ، لقد أغمضت عينيها ، وتدلى رأسها على صدرها ، وخُيل إليها أن وجهها قد جف وتحجر ، وأن رأسها صغر حتى غدا حجمه كحجم رأس الدبوس ، ومع ذلك كانت تغنى بصوت خافت هو أشبه بالهدير :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

وكان للأصوات الصادرة عن صراخ الطفل ، وصرير سريره وهدير ڤاركا وشخير رب البيت وصفير الجُدجُد فى جدران الموقد ، أن تآلفت

مع بعضها البعض فغدت تشبه الموسيقى الليلية المهدهدة ، التى يحلو للمرء الاستماع إليها وهو مستلق على فراشه، غير أن هذا اللون من الموسيقى إنما يثير الأعصاب ، ويضغط على النفس ، ويطرد النعاس ، ويقهر النوم .

كان القنديل يهتز ، وكان ظله وظل اللفائف والسروال يترجرجان ويندسان فى عينى ڤاركا الجامدتين، شبه المغمضتين فينعكسان فى رأسها المثقل بالنعاس على شكل أحلام يكتنفها الغموض من كل جانب .

تراءت لڤاركا غمائم سوداء : تطارد الواحدة الأخرى فى كبد السماء ، وتصرخ كما يصرخ الأطفال ، ثم ما عتمت الريح أن هبت ، فاختفت الغمائم فجأة . وظهرت للفتاة طريق مغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة ، ازدحمت فيها عربات النقل ، وتدافع الناس بالمناكب وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم ، وكانت هناك أشباح تتقدم القوم ، أو تسير خلفهم ، وترامت على جانبى الطريق أحراج التفت برداء من الضباب الرطب ، ثم ظهر للفتاة أن هؤلاء الناس والأشباح يسقطون على الأوحال دفعة واحدة فتتقدم هى نحوهم وتسألهم : ما السبب فى ذلك ؟ فيجيبونها : نريد النوم ! نريد النوم ! ويستغرقون فى نوم عذب ، على حين تقف الغربان والعقاعق ، على أسلاك البرق وتحدث صراخاً أشبه بصراخ الأطفال وهدفها من ذلك إيقاظ النيام ! . .

وتهدر ڤاركا وهى فى حالة من اللاوعى :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

ثم تراءى لها أنها فى كوخ يسوده ظلام حالك احتبس فيه الهواء ، وبلغ مسمعيها صوت والدها المتوفى « أفيم ستيبانوف » وهو يتلوى على فراش المرض ، وقد حانت ساعته ، إنه لا يقوى على النطق بكلمة واحدة لكنه كان يستنشق الهواء ، ويخرجه من بين أسنانه مجزءاً . . آ . . آ . . آ . .

وتراءت لها أمها « بيلاجيا » وقد هرعت إلى بيت من كانت تخدم عندهم لتخبرهم أن « أفيم » يلفظ النفس الأخير . فطال أمد غيابها ، وآن لها أن تعود ، ثم ها هي ذى تسمع وقع أقدام ... إنه طبيب كان فى ضيافة مولى أمها ، فلما جاءته مستنجدة أرسله برفقتها ليعود أفيم .

وتراءى لمَاركا أن الطبيب يدخل الكوخ دون أن ترى له وجهاً فى الظلام ، ثم سمعته يسعل ويقول : أوقدوا النار !

فأجابه المريض : آ . . آ . . آ . .

وأسرعت بيلاجيا إلى الموقد وراحت تتلمس علبة الثقاب ، ولما لم تعثر عليها أخرج الطبيب علبة من جيبه أشعل عوداً منها .

وهنا ، سمعت الفتاة أمها تقول لأفيم : صبراً يا شيخى صبراً ؟ وخرجت من الكوخ وبعد برهة وجيزة عادت وبيدها شمعة أضاءت أرجاء الكوخ ، فظهر أفيم مسجّى على الأرض ، ولخديه لون مثل لون الزهر ، ولعينيه بريق خاطف ، ونظرة حادة .

قال الطبيب مخاطباً أفيم : ما الذى دهاك ؟ تشجع ! وانحنى عليه ؛ وما إن تفرّس فى وجهه حتى قال : أمن زمن طويل وأنت تعانى هذا المرض ؟

فأجابه أفيم هامساً : وما الذى تراه يا سيدى ؟ هل حانت ساعة مفارقتى لعالم الأحياء ؟

قال : طب نفساً يا أفيم ، سنعمل على شفائك بإذن الله .

ــ شكراً لك يا سيدى . ولكن ما الفائدة من العلاج إذا ما حل ملكُ الموت ؟

فحص الطبيب المريض لمدة ربع ساعة ، ثم نهض وقال : لا بد من نقله إلى المستشفى على عجل . إن علته تتطلب إجراء عملية جراحية ، هيا إلى مستشفى المدينة .

قالت بيلاجيا : أيها الطبيب إننا لا نملك وسيلة لنقله .

قال : لا بأس عليك سأتصل الآن بمولاك وأسأله أن يتكرم بنقل زوجك على عربته .

وتراءى للفتاة أن الطبيب يخرج من الكوخ ؛ وتنطفىء الشمعة ؛ وتسمع صوت أبيها مرة ثانية يقول مرتعشاً : آ . . آ . . آ . .

ثم تأتى العربة ؛ ويدخل جماعة إلى الكوخ ؛ ويلفون المريض بالأحزمة ويرحلون به .

ويسفر الليل عن صباح رائق ، وتذهب بيلاجيا مبكرة إلى المستشفى لتعرف ما حل بزوجها ؛ ويخيل إلى الفتاة أن طفلا فى مكان ما يبكى . . . وأن هناك من يغنى له بصوتها ويقول :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

ثم ها هى ذى أمها تعود ؛ وترسم إشارة الصليب على صدرها ؛ وتتحدث بصوت خافت ؛ أخذوه ليلا ، وعند الصباح توفاه الله فانتقلت روحه إلى الملكوت السماوى . . حيث الراحة الأبدية .

ويتراءى للفتاة أنها تركت الكوخ ، وذهبت إلى الغابة المجاورة تبكى أباها ، وإنها لكذلك إذ بها تفاجأ بضربة شديدة على ظهرها ، طوحت بها على شجرة الصنوبر ، ولما تطلعت إلى الوراء مذعورة وجدت نفسها أمام مولاها صانع الأحذية يقول لها : خسئت أيتها اللعينة . تنامين والطفل يبكى الساعات الطوال ؟

وقرص أذنها . فاهتز رأسها . . واهتز السرير .

وغنت أغنيتها ، ورقص ظل القنديل الأخضر على السقف ، وترجرج ظل السروال واللفائف ، وعاد إلى مخيلتها منظر الطريق المغطاة بطبقة من الأوحال الكثيفة ؛ والناس الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وهم يتدافعون ، والأشباح التى تفترش الأرض وهى تغط فى سبات عميق .

شاهدت ڤاركا هذا المنظر فطاب لها النوم ؛ وودت لو يتاح لها أن ترقد إلى جانب تلك الأشباح ، غير أن الهذيان نقلها على حين غرة إلى حالة ثانية من الرؤى فوجدت نفسها تسرع فى سيرها إلى جانب أمها بيلاجيا ووجهتهما المدينة . سعياً وراء العمل ؛ ولما صادفت أمها أحد المارة ، مدت له يدها مستعطية وقالت : حسنة لله ! . .

وهنا تضطرب فاركا ؛ فتسمع صوتاً مألوفاً يقول لها بشدة وصرامة : هاتِ الطفل . . هاتى الطفل . . تنامين أيتها الخسيسة ؟

فتنتبه فاركا مذعورة ، وتجيل النظر فيما حولها . فيتبين لها أن كل ما شاهدته لم يكن غير هذيان . . فلا طريق هناك ، ولا أب ولا أم ، ولا مارة ولا أشباح ، وإنما هى مولاتها تقف فى وسط الغرفة ، وقد جاءت لترضع صغيرها .

وبينما كانت السيدة البدينة ذات الكتفين العريضتين منهمكة بطفلها ، انتصبت الفتاة فى مكانها جامدة واجمة ، تنتظر بفارغ الصبر انتهاء مولاتها من إرضاع الطفل . . وكانت السماء فى تلك الساعة ، تميل إلى الزرقة ، فاصفر نور القنديل ، وأخذ ظل السروال واللفائف يختفى ويتلاشى شيئاً فشيئاً ، فهذه العلامات إنما تؤذن بقرب انبلاج الصباح .

دفعت ربة البيت الطفل إلى الفتاة ، وقالت لها وهى تزرر صديريها : هاك الطفل ، ضعيه فى سريره ، إنه لا يفتر عن البكاء ، لا شك فى أنك أسأت معاملته .

أضجعت ڤاركا الطفل فى سريره وجعلت تهزه كسابق عادتها ، وكان ظل القنديل والسروال واللفائف يضمحل بالتدريج ؛ فأحست الفتاة بالراحة لخلاصها من أثره المزعج ، إلا أنها كانت تشتهى النوم كأعز أمانيها ، فأسندت رأسها إلى السرير ، وأخذت تهزه هزاً عنيفاً لكى تطرد النوم من عينيها المتعبتين ، ورأسها المثقل .

وإن هي إلا دقائق ، حتى سمعت مولاها يقول :

ـ ڤاركا . . أشعلي النار في الموقد ! . .

وكان هذا الأمر إشارة إلى أنه قد آن لها أن تنهض ، وتبادر إلى العمل .

فهبت الفتاة ، وأسرعت الخطى إلى الحوش تجمع الحطب ، وكانت تقفز من مكان إلى آخر فرحة جذلة . ففي الحركة ما يبعد عنها شهوة النوم ، وفي إشعال النار في الموقد ما يبعث الدفء في جسمها ، فينبسط وجهها المتحجر ، ويصحو فكرها المتبلد .

وفي هذه الأثناء ، قالت ربة البيت : ڤاركا هيئي الشاي ! . . .

ولم تكد الفتاة تضع الفحم في الموقد وتذكي فيه النار ، حتى قال لها رب البيت :

ـ ڤاركا ، نظفي الحذاء . .

فجلست على الأرض تنظف الحذاء ، فساورها سلطان النوم ، واستولت عليها رغبة جامحة لتدخل رأسها في هذا الحذاء الكبير البعيد الغور ، وترقد فيه ولو ساعة من الزمن ، وإذا بالحذاء ينمو وينتفخ ، ويستوعب الغرفة كلها . ثم ثابت الفتاة إلى رشدها ، وألقت بالفرشاة جانباً ، وجعلت ترج رأسها وتفرك عينيها ، وتحملق في الأشياء حتى لا تتضخم في نظرها ، ولا تتزحزح من مكانها .

ثم سمعت صوتاً يقول لها : ڤاركا اغسلي السلالم !

فتلبي الفتاة الطلب ، وتغسل السلالم ، ثم تكنس الغرف ، وتشعل النار في مواقد أخرى ، وتذهب إلى حانوت مولاها وترتبه ، وهكذا كانت تجد وتعمل بلا انقطاع غير واجدة لنفسها دقيقة واحدة للراحة والاستجمام .

لكن ڤاركا لم تستصعب شيئاً أكثر من عملها في المطبخ ؛ فإذا ما وقفت تقشر البطاطا شعرت بأن قوة تجذب رأسها نحو الطاولة ، وأن

حبات البطاطا تتحرك أمامها وتقفز ، وأن السكين تتمامل فى يدها وتسقط على الأرض . هذا وربة البيت البدينة تتبختر فى المطبخ وتصرخ فى وجهها . وتسمعها قارص الكلام .

ثم ينقضى النهار ، وتتطلع الفتاة إلى النوافذ فترى الظلام ينشر ستاره على البلدة ، فتضغط على صدغيها وتبتسم مسرورة ، دون أن تجد لهذا السرور سبباً ، وكل ما كانت تحسه هو أن العتمة تداعب عينيها الناعستين . وتعدها بنوم هنىء عاجل .

وبعد تناول القوم العشاء ، بدأت السهرة وجاء الضيوف فنادى رب البيت الفتاة قائلا : ڤاركا ضعى النار فى الموقد ، فتشعله ثم تقف على قدميها ساعة كاملة محدقة بالضيوف منتظرة الأوامر ، فيلتفت إليها مولاها ويقول : ڤاركا أسرعى واشترى لنا ثلاث زجاجات من النبيذ !

فتثبُ من مكانها وتخف إلى تلبية طلب مولاها معللة النفس بأن الحركة تطرد النعاس ، وحينما تعود يبادرها مولاها بقوله : ڤاركا آتينا بزجاجة الڤودكا على وجه السرعة .

وبعد أن غادر الضيوف المنزل ، أطفأت الفتاة الأنوار ، وذهب كل من فى البيت إلى فراشه ، وكان آخر أمر تلقته الفتاة من مولاتها : ڤاركا هزى سرير الطفل ! . .

وعاد الجُدْجُد إلى الصفير ، كما عاد انعكاس القنديل الأخضر يتأرجح على السقف ، وظلُّ السروال واللفائف ، يغمز عينى الفتاة شبه النائمتين ، ويثقل رأسها . وعادت هى بدورها إلى الهذير :

أهدهدك أيها الطفل وأغنى لك أغنية جميلة .

لكن الطفل لا يعبأ بأغنية ڤاركا ، ولا بهزها لسريره ، فيتابع بكاءه وصراخه ، فتقع الفتاة فى الهذيان من جديد ، فترى الطريق الموحلة ،

والناس والأشباح ، وأمها بيلاجيا ، ووالدها أفيم ، ترى كل شيء وتفقه كل شيء ، باستثناء أمر واحد استعصى عليها إدراكه وهو : ماهية تلك القوة التي تقيدها من يديها وقدميها وتشدد الخناق عليها ، وتحول دونها والعيش الهنيء ؟

أجالت الفتاة النظر حولها باحثة عن تلك القوة الخفية . فتطلعت إلى انعكاس القنديل ، وأنعمت النظر في ظل السروال واللفائف ، وأرهفت السمع إلى صراخ الطفل . . وبعد أن قضت فترة أليمة في البحث والتفتيش ، إذ بفمها ينفرج بابتسامة الرضى . لقد عثرت على ذلك الخصم اللدود الذي ينكد عليها حياتها . . إنه الطفل !

قهقهت ڤاركا ، وساءلت نفسها باستغراب : كيف لم يدر بخلدي من قبل هذا الأمر التافه ؟ . . وخيل إليها أن الجدجد ، وانعكاس القنديل وظل السروال واللفائف ، كلها تضحك منها وتعجب كيف لم تفقه ذلك إلا الساعة ؟

وعلى ذلك ، غدت ڤاركا أسيرة تصور مريع كاذب ، فنهضت عن كرسيها ، وعلى شفتيها ابتسامة عريضة ، وسارت في الغرفة ، وهي خاضعة لفكرة تسرها وتدغدغها !

قهقهت الفتاة ثانية ، وغمزت بعينيها ، وهددت الظل بأصبعها وتسللت إلى السرير ، وانحنت على الطفل !

وبعد أن تم لها ما أرادته ، خيم السكون على البيت ، فانطرحت على الأرض تقهقه بملء شدقيها ، وإن هي إلا ثوان حتى استغرقت في نوم عميق ، هادئ ، وكأنها قد فارقت الحياة !

من مذكرات حالم

فى التاسع من شهر مايو أخذت إجازتى السنوية لمدة ثمانية وعشرين يوماً . وسألت أمين صندوق دائرتنا أن يقرضنى مبلغ مئة روبل ، وعقدت النية على أن أقضى تلك المدة فى حياة بذخ واسعة النطاق ، تجعلنى أعيش بذكراها ، وبذكراها فقط خلال عشر من السنوات .

أتعرف كيف تكون تلك الحياة ؟ إنها لا تكون بذهابك إلى المسرح الصيفى لمشاهدة أوبريت على ضوء القمر ثم عودتك إلى البيت فى الصباح نشوان . . . وهى لا تعنى ذهابك إلى المعارض ؛ ومن ثم إلى حلبة سباق الخيل ، حيث تأمل أن يأتيك الربح وإنما هى أن تجلس فى القطار وتتجه نحو الهواء الطلق المشبع بعبق البنفسج ، وزهر الكرز . . . هناك حيث حبات الندى الماسية تداعب نظرك ببياضها اللطيف وبريقها الأخاذ ، حيث الأراضى الفسيحة والسماء الزرقاء ، حيث تنبسط أمامك الأحراج الخضراء ، وتكون فى عشرة الطيور ؛ وتستمع إلى خرير المياه المنسابة فى الجداول ، هناك فقط تدرك ماهية الحياة . أضف إلى ذلك مقابلتين أو ثلاثاً مع صاحبات قبعات القش الواسعة ؛ والقفازات البيضاء . أقر بأنى حلمت بذلك كله بعد أن نلت الإجازة ، وغمرنى أمين الصندوق بلطفه وكرمه فأسرعت إلى بيتى وأخذت أتأهب للسفر إلى الريف .

عملت بنصيحة أحد الأصدقاء ، واستأجرت فى قرية « بيريريفو » غرفة فى بيت السيدة صوفيا بافلوفنا كنيغينا ، وقد جرت عملية الاستئجار بأسرع مما كنت أتوقع .

بحثت عن بيت السيدة كنيغينا حال وصولى إلى القرية ؛ فاهتديت إليه دون كبير عناء ؛ ولما وطئت قدماى ردهة البيت الخارجية ، دهشت

لما شاهدت فيها من فرش حسن يدل على النعمة وسعة العيش . وقد أثارت دهشتى أكثر من الفرش . تلك الصبية المليئة الجسم التى كانت تجلس إلى جانب النضد وتشرب الشاى . . . وإذ وقع نظرها على واقفاً مشدوهاً قالت : أتريد شيئاً ؟ قلت : المعذرة يا سيدتى . إنى . . يبدو لى أننى أخطأت الهدف . إنى أبحث عن بيت السيدة كنيغينا .

قالت : أنا هى بالذات ، فما الذى تريده ؟

مادت بى الأرض لدى سماعى جوابها هذا ، لأننى اعتقدت أن أرى فى صاحبات البيوت والفيلات نسوة طاعنات فى السن مقعدات . تنبعث منهن رائحة القهوة ، لكننى هنا — أنقذونا يا ملائكة السماء ، على حد قول هاملت — أمام امرأة حسناء ، رائعة فاتنة . .

قلت لها أريد غرفة فى بيتك هذا لقضاء إجازتى السنوية .

قالت : آه إن هذا لمما يسرنى جداً ، تفضل واجلس ، لقد كتب لى صديقك بذلك ، ألا تريد شاياً ؟ وهل تحبه مع المربى أو مع الليمون .

هناك نوع من النساء — والشقر منهن خاصة — يكفى أن تجلس معهن دقيقتين أو ثلاثاً حتى تظن أنك تعرفهن منذ أمد بعيد ، وأن بيتهن إن هو إلا بيتك .

وهذا عين ما حدث لى من صوفيا باڤلوڤنا ، فما إن شربت عندها الكأس الأولى من الشاى حتى عرفت منها أنها غير متزوجة ، وأنها تعيش على الفائض ، وتتوقع زيارة عمتها لها ، وعرفت أيضاً الأسباب التى حملتها على تأجير غرفة فى بيتها الريفى هذا . وخلاصة هذه الأسباب أنه يصعب على امرأة أن تدفع بمفردها مبلغ مئة وعشرين روبلا إيجاراً سنوياً ، وإنه لمما يخيف امرأة أن تظل فى منزل ريفى وحدها ، فربما هاجمها لص فى الليل على حين غرة ، أو ربما دخل عليها فلاح مرعب فى رائعة

النهار . وعلى ذلك ليس هناك من يلوم صوفيا باڤلوڤنا إن هى أجرت غرفة بمنزلها لأحد من الناس . رجلا كان أو امرأة .

وعلقت صوفيا على كلامها هذا وهى تلعق المربى : ولكننى أفضل مجاورة الرجال . فهم أقل مشاكل وأبعث على الطمأنينة . .

وصفوة القول لم تمر ساعة من الزمن حتى تصافيت مع صوفيا باڤلوڤنا ، وأصبحنا صديقين حميمين .

ثم قلت لها : تحدثنا عن كل شىء مهم ، وأهملنا الأهم ، فكم تريدين أجراً للغرفة ؟ سأظل عندك مدة ثمانية وعشرين يوماً ، وسأتناول الغذاء طبعاً ، والشاى ، وغيره . .

قالت : وجدت موضوعاً تتحدث فيه . ادفع ما تستطيع دفعه إننى لا أؤجر الغرفة لاعتبارات مالية ، وكل ما أرمى إليه ، هو أن أرى الغرفة مأهولة . . أتستطيع دفع خمسة وعشرين روبلا ؟

قبلت الشرط وبدأت حياتى الريفية . واللطيف فى هذه الحياة أن نهارها يشبه نهارها ، وليلها يماثل ليلها ؟ وكم من لذة يجدها المرء فى هذه الأيام والليالى المتواترة المتشابهة ؟

أستميحك العذر أيها القارئ العزيز . . . إن أنا عانقتك من شدة الفرح . . لقد كنت أستيقظ صباحاً غير مفكر بتاتاً أعباء الوظيفة ، فأشرب الشاى مع المربى ؛ وفى الساعة الحادية عشرة أزور صاحبة البيت لأحييها تحية الصباح ، وأشرب عندها فنجاناً من القهوة مع المربى اللذيذة الطعم ، ثم نأخذ نثرثر إلى أن يحين موعد الغذاء .

وأى غذاء شهى تعده صوفيا باڤلوڤنا . . . تصور نفسك خائراً من الجوع ؛ ثم يقدم لك كأس من النبيذ المعتق ؛ ولحم مشوى مع المقبلات ، ويتبع ذلك حساء الخضار بالزبدة ، ثم غيره وغيره . . وبعد أن تنتهى من غدائك تضطجع فى سريرك ؛ وتطالع رواية مسلية ، فى حين أن صاحبة

البيت تروح وتغدو إلى جانب باب الغرفة وتقول لك : لا تنزعج . . . نم ! . . نم ! . .

وتنهض بعد القيلولة فتشرب الشاى مع المربى ، وعند ما يأتى المساء تتعشى ، وإذ يأوى الناس إلى بيوتهم ، ولا تعود تسمع فى القرية إلا زقزقة العصافير يتخللها أحياناً صراخ مالك الحزين ، أو صفير قطار آت من بعيد يبلغ مسمعيك بكل مشقة ، تخرج أنت وصوفيا باڤلوڤنا إلى الغابة القريبة فتسرحان فيها حتى ساعة متأخرة من الليل ، فتارة تلجان الدّغل ، وتارة أخرى تنقلان الخطى على متاريس الخط الحديدى ، وإذا ما أحست الشقراء المكتنزة الجسم برعشة من برد المساء تشبثت بك ، وحولت إليك بين الفينة والأخرى وجهها الناصع البياض وقد عكس القمرُ عليه أشعته الفضية . . . فيا له من منظر خلاب بديع ! . .

ولم ينقض أسبوع على إقامتى عند صوفيا باڤلوڤنا حتى حدث ما تتوقعه أيها القارئ ، وحدوث مثل هذا الأمر لا مفر منه لأية قصة لها وزنها . . . إننى لم أطق الصمت وفاتحت صوفيا بحبى لها . . . فأصغت إلىّ غير مكترثة ، بل استمعت فى شىء من البرودة ، وكأنها توقعت ذلك منذ البداية ولوت شفتيها بلطف كما لو كانت تريد القول : وما الداعى لكثرة التحدث فى هذا الصدد ؟

ولّت أيام الإجازة كما تولى الثانية الواحدة ، فأخذت أرتب حوائجى فى الحقيبة وأودع النزل وصاحبته وداع المستوحش المتألم ، وكانت صوفيا تجلس على المقعد تكفكف الدمع ، فاقتربت منها وهدأت من روعها واعداً إياها بأن أتردد عليها فى بيتها القروى هذا فى أيام الأعياد ، وأن أزورها فى موسكو فى فصل الشتاء .

وقلت : متى نتحاسب يا منى القلب ، وما هو المبلغ المطلوب منى ؟

قالت وهى تغص بالبكاء : نتحاسب فيما بعد ! . .

قلت : وما الداعى لهذا التأجيل ، فالمثل يقول . . الصداقة صداقة ودع المال جانباً . . إننى لا أود العيش على نفقتك فلا تتعبى نفسك يا صوفيا ، وخبرينى كم تريدين منى من الروبلات ؟

أجهشت صوفيا بالبكاء وقالت وهى تسحب درج النضد : هناك مبلغ تافه . . بوسعك أن تدفعه فيما بعد . . ثم نقبت فى الدرج وأخرجت منه كشفاً وقدمته لى .

قلت : وأخيراً ، هذه هى قائمة حسابى ، لقد أحسنت عملا . . . ووضعت نظارتى على عينى وألقيت على الكشف نظرة عجلى . . ما هذا ؟! هذا ليس حسابى يا صوفيا . . إن هذا الكشف يتضمن مبلغاً قدره ٢١٢ روبلا و ٤٤ كوبيكاً ! . . يخال إلىّ أنك قدمت لى حساب غيرى .

قالت : كلا يا حبيبى ! هذا كشف حسابك : فافحصه جيداً . . ولكن كيف تجمع علىّ كل هذا المبلغ ؟ إننى أوافق على دفع خمسة وعشرين روبلا للغرفة كما اتفقنا ، وأوافق أيضاً على دفع ثلاثة روبلات للخادم ، وأما الباقى فلا يدخل فى حسابى بتاتاً .

تطلعت إلى صوفيا بافلوفنا بعينين باكيتين مستغربتين وقالت : إننى لا أفهمك يا شقيق الروح ! . . ألا تثق بى ؟ فاحسب إذا أردت . ألم تشرب الخمر قبل الأكل ؟ . . أولم تحتس الڤودكا فى أثناء الطعام ؟ . . أو نسيت المربى مع القهوة والشاى والتوت البرى والخضار ؟ . . أما القهوة فلم نتفق عليها سلفاً وكنت تشربها مرّات عديدة فى النهار ، ومع ذلك فالأمر تافه وبوسعى أن أخصم لك اثنى عشر روبلا . . ولتدفع لى مئتى روبل فقط ! . .

— لكننى أرى فى الكشف مبلغ خمسة وسبعين روبلا ولم تذكرى فى أى باب أنفقت ؟

— أنسيت فى أى باب أنفقت ؟ حقاً إنها لمداعبة لطيفة منك ؟

تطلعت فى وجه صوفيا طويلا ، فكان صادقاً صافياً ، تعلوه علامات الاستغراب . . . فانعقد لسانى فى فمى ؛ ولم أنطق بكلمة واحدة ، فقدمت لها مئة روبل وحرّرت كمبيالة بمئة أخرى ، وحملت حقيبتى على كتفى ، ووليت وجهى شطر محطة سكة الحديد .

أيها السادة ألا يقرضنى أحدكم مئة روبل ؟ !

صبي شرير

سار إيڤان إيڤانتش لايكين ، وهو شاب لطيف المحيا ، إلى جانب أنّا سيميونڤنا زامبليتسكايا ، وهى فتاة لها أنف مرتفع الأرنبة ، وكانا يتجهان إلى شاطئ البحر ، وإذ بلغاه ، جلسا على مقعد لا يبعد إلا خطوات من المياه ، تظلله بعض شجيرات الصفصاف الكثيفة اليافعة .. إنه لمكان رائع حقاً ، فلو أتيح لكم وجلستم فيه لاستترتم عن العالم ، ولما رآكم سوى الأسماك والعنكبوت ، والبريق المتراكض على صفحة الماء . . وكان الشابان يحملان أدوات صيد الأسماك ، من عصى طويلة ، وصنارات ، وأنبوبة زجاجية تتزاحم فيها الديدان ، وما كادا يجلسان حتى بدآ يصيدان .

ثم بادر لايكين رفيقته الحديث وهو يتلفت يمنة ويسرة : إننى جد مسرور فى نهاية الأمر .. لأننا غدونا بمفردنا ، أود أن أحدثك يا أنّا سيميونڤنا عن أشياء كثيرة . . فلما شاهدتك لأول مرة . . انتبهى ! . . سمكة تقضم صنارتك ! . . أقف وقتئذ قيمة الحياة . . وعثرت على معبودتى التى يجب على أن أقف لها حياتى الشريفة المثمرة .. انتبهى ! .. سمكة تقرض صنارتك ! . . أجل ! حين شاهدتك أحببتك بكل قواى .. انظرى الصنارة ترتعش ! . . أناشدك أيتها العزيزة أن تطمئنى قلبى . . أيمكننى أن أعتمد على .. كلا ؛ ليس على حب متبادل إننى لا أستحقه ! بل لا أجرؤ على التفكير فيه . . أيمكننى أن أعتمد على . . اسحبى الصنارة ! . .

ورفعت أنّا يدها إلى أعلى وجذبت الصنارة . . وإذا بسمكة فضية

تلمع فى الضواء ؛ فما إن وقع نظرها عليها حتى صرخت تقول : رباه . . شبوط . . آه . . آه أسرع . . لقد أفلت ! . .

وهكذا أفلت الشبوط ، وقفز على الحشائش ، ثم قفز قفزة أخرى وإذ به يعود إلى موطنه الطبيعى ، ويتخبط فى المياه قليلا ثم يغوص . .

وأسرع لايكين فى أثر السمكة ، وأمسك سهواً بيد أنا سيميونفنا بدلا منها .. ووضعها على فمه ، دون أن يعى ما يفعل ، فاهتزت الفتاة ؛ وحاولت التخلص ، ولكن محاولتها جاءت متأخرة ، واحتجاجها اختنق فى حلقها ؛ لأن الشفاه التقت عفواً فى قبلة حارة ، أعقبتها قبل أخرى . . ثم كان القسم ، وكان التأكيد . . فيالها من دقائق سعيدة ! . .

والشىء بالشىء يذكر . ليس فى هذه الحياة الزمنية سعادة مطلقة . فالسعادة عادة تحمل فى ذاتها سماً تسمم به نفسها ، أو يأتيها هذا السم من الخارج ؛ وهذا ما حدث للفتى والفتاة إذ ما كادا يتعانقان حتى بلغ مسامعهما ضحك مزعج ، فتطلعا إلى المياه مرتبكين وإذا بصبى عارى الجسم يقف فى المياه حتى الخاصرة ، ويرمقهما بنظرات خبيثة ويضحك ، ولم يكن هذا الصبى سوى التلميذ كوليا شقيق أنا سيميونفنا . .

وقال لهما الصبى : آ . . آ . . آ . . رأيتكما تتعانقان ، انتظرا سأقول للماماشا ! . .

فأجابه لايكين وقد احمر وجهه خجلا : اسمع ياكوليا ، أنت صبى شريف ومن النذالة أن تراقب غيرك . ثم من الخطة واللؤم والسفالة ، أن تنقل ما تراه إلى غيرك ! . . فأملى فيك بوصفك صبياً شريفاً نبيلا أن . . . .

فقاطعه الصبى النبيل قائلا : أعطنى روبلا وإلا بحت بما رأيت . .

فأخرج من جيبه روبلا وقدمه إلى كوليا فتناوله هذا وضغط عليه فى راحته المبتلة وصفر ، وابتعد سابحاً . .

وفى اليوم التالى ابتاع لايكين من المدينة أقلاماً ملونة وكرة وقدمها إلى كوليا ؛ كما أن شقيقته أهدته كل ما لديها من علب فارغة ، ثم قدما له معاً سلسلة فى طرفها رأس كلب ؛ ويبدو أن هذه الهدايا المتوالية لاقت هوى فى نفس الصبى الشرير . . فطفق يراقب الفتى والفتاة ، ويشدد عليهما الخناق . فحيثما التقيا كان هو لهما بالمرصاد ، لا يفارقهما لحظة واحدة .

وحدث مرة أن اغتاظ لايكين من مضايقة كوليا وقال له وهو يقضم أسنانه غضباً : يا لك من وقح . . إنك مخلوق صغير ، لكنك لئيم كبير !

وانقضى شهر يوليو كله وكوليا مواظب على تعكير صفو المحبين المسكينين ، وكان يهددهما دائماً بالوشاية بهما ، ولا يردعه عن ذلك إلا الهدايا المتواصلة . وأخيراً أخذ يحدثهما عن ساعة جيب فوعداه بها مرغمين .

وبينما كان ثلاثتهم يتناولون الغداء مع بقية الأهل ، قهقه كوليا على حين غرة ، وغمز لايكين بعينه وسأله : أأقول ؟ ! . .

فاحمر وجه لايكين خجلاً وارتبك ارتباكاً شديداً حتى إنه وضع الفوطة فى فمه مع قطعة الخبز . . أما أنا سيميونفنا فما كان منها إلا أن نفرت من مكانها وهرعت إلى غرفة مجاورة تاركة الأهل فى حيرة من أمرها .

وظل لايكين وأنا عرضة لمضايقة الصبى وكثرة مطالبه إلى أن هل شهر أغسطس فتقدم الشاب من أبوى الفتاة طالباً يدها ، وإذ حالفه التوفيق ونال موافقتهما فرح فرحاً عظيماً ، وكان أول ما فعله أن عدا إلى الحديقة باحثاً عن الصبى كوليا الشرير فما إن عثر عليه حتى فرك أذنه ، وكانت أنا فى تلك الآونة تبحث عن كوليا فى الحديقة أيضاً ، فأسرعت إليه وفركت أذنه الثانية .

وللقارئ أن يتصور مدى الغبطة التي استولت على نفسى المحبين وهما يصغيان إلى بكاء كوليا وتوسلاته وهو يقول لهما : عزيزى . . حبيبى . لن أفعل . . آخ . . آخ . . سامحانى ؟ !

وقد أقر الزوجان فيما بعد بأنهما لم يتذوقا ، طيلة أيام حبهما ، سعادة كتلك التى غمرت نفسيهما وهما يفركان أذنى الصبى الشرير ! . .

ڤانكا

ڤانكا جوكوف صبى فى التاسعة من عمره ، مضت عليه ثلاثة أشهر وهو يعمل أجيراً عند صانع الأحذية المعلم إلياخين فى موسكو ، وفى عشية عيد الميلاد ، كان الصبي يتقلب على فراشه قلقاً مضطرباً يطالب النوم ولا يأتيه .

وإذ انبثق الفجر ، وذهب معلمه مع أسرته إلى الكنيسة ليؤدوا الصلاة ، أسرع ڤانكا إلى الخزانة ، وأخرج منها دواة ، ومسكة تقبض على ريشة يعلوها الصدأ ، فوضعها على مقعد خشبى ، وركع على ركبتيه إلى جانب المقعد ، ثم نشر عليه ورقة بالية ، وهم بالكتابة .

وقبل أن يخط الكلمة الأولى : تطلع إلى الباب والنافذة وجلاً ، ثم رمق صورة القديس بطرف عينه ، وأجال النظر فى الرفوف التى تكدست عليها قوالب الأحذية ، وهو يصعد النفس متقطعاً .

وشرع يكتب : « جدى العزيز .. كونستانتين ماكاريتش هأنذا أكتب لك كتاباً أحييك فيه تحية عيد الميلاد . وأسأل الله أن يمنحك الخير العميم ، وأن يطيل حياتك ، إذ لم يبق لى سواك بعد أن فقدت أبى وأمى » .

وحول ڤانكا نظره إلى النافذة ، وكان نور الشمعة يتلألأ عليها ؛ فتخيل جده الذى يعمل حارساً ليلياً فى بيت السيد جيفاروف ، منتصباً أمامه ، وكان جده هذا ، رجلا قصير القامة ، نحيف الجسم ، فى الخامسة والستين من عمره ، إلا أنه ما فتئ رشيقاً نشيطاً ، لا تفارق ثغره الابتسامة ، ففى النهار يرقد فى المطبخ ، أو يداعب الطاهيات ، وفى الليل يلتف بفروته المهلهلة ويدور حول منزل مولاه ضارباً الأرض بعصاه ،

يتبعه كلباه « كاشتانكا » و « فيون » ؛ وهذا الأخير أسود اللون ، طويل الجسم ، قريب الشبه بابن عرس ، دقيق النظر ، مدلل محبوب ، ويتمتع بسمعة طيبة بين أربابه والغرباء ، مع أنه كان يخفى تحت لطفه وتواضعه حقداً وخبثاً غريبين ، وليس أقدر منه فى التسلل إلى حيث تدفعه حاسة الشم . كما أنه ماهر جداً فى التعلق بأرجل الناس ، وسرقة الدجاج من الفلاحين . . فطالما رُكل وجالد عقاباً له على وقاحته ، حتى إن بعضهم علقه من عنقه مرتين ؛ وبالرغم من ذلك كله ، كان « فيون » ينهض وكأن شيئاً لم يحدث له !

تصور ڤانكا جده واقفاً حسب عادته عند بوابة المنزل ، موجهاً نظره إلى نوافذ الكنيسة الحمراوية اللون ، وقد انكمش على نفسه من شدة البرد ، فراح يضرب الأرض بحذائه الغليظ ويفرك يديه ، ويسعل ، ويمازج الطاهيات والخادمات ، ويقرصهن فى أيديهن مداعباً مماجناً ، ثم يُخرج من جيبه علبة السعوط ويعرضها عليهن متسائلا : أتردن الاستنشاق؟ فتأخذ النسوة القليل من السعوط ويستنشقنه ، وسرعان ما ينهمكن فى العطس ، وجدّ ڤانكا يضحك مسروراً ويصرخ : هلكت من الصقيع .

ثم يضع السعوط عند أنف الكلبة « كاشتانكا » فتعطس ساخطة مستاءة ، ويضعه عند أنف الكلب « ڤيون » فيرى هذا أن من الكياسة والتواضع ألا يعطس ويكتفى بأن يلوى ذنبه. وكان الطقس إذ ذاك جميلا ، والهواء ساكناً نديّاً . وإذ يقبل الليل وتغرق القرية فى لجته ، تبدو البيوت بسطوحها البيضاء ، والمداخن تبعث الدخان أعمدة . . والأشجار وقد اتشحت برداء فضى ، وتدلت عروقها تحمل ذوات الصقيع ، والسماء تعجّ بالنجوم التى تغامز بعضها فرحة مغتبطة ، والمجرّة بدت جلية واضحة ، وكأنها غُسلت عشية العيد ، وفُركت بالثلج ! . .

تنفّس ڤانكا قليلاً ، وتابع كتابة رسالته إلى جده فقال :

« اقتادنى معلمى أمس من شعرى إلى الحوش ، وانهال على ضرباً بالسير لأننى هززت طفله عفواً فغفا . وحدث يوم الأحد الفائت أن طلبت منى معلمتى أن أنظف لها سمكة ، فبدأت بتنظيفها من ذنبها ، فحنقت على ، وانتزعتها من يدى ، وزججت رأسها فى فمى . .

« إن غذائى فى هذا البيت ، يتألف من خبز فى الصباح ، وبرغل عند الظهر ، وخبز فى المساء ، ولا أعرف للشاى والحساء طعماً ، أما نومى ففى الممر حيث أكون عرضة للبرد القارص .

« وأخبرك يا جدى أن أجراء معلمى يهزءون بى ، ويرسلوننى إلى الحمارة لكى أحضر لهم الفودكا ، ويسألوننى أن أسرق لهم الخيار من بيت معلمى ، وهذا يضربنى بكل شىء يقع فى يده ، لأقل هفوة تبدو منى .

« أى جدى العزيز . . . ارحمنى بالله عليك ، وخذنى من هذا البيت إليك ، فليس عندى أية حيلة للخلاص ، خذنى من هذا المكان ، أنا أقبل قدميك وأدعو لك دائماً ، وإن لم تفعل ، فإننى لا محالة هالك » .

لوى فانكا فمه . ومسح عينيه بقبضته القذرة ، وغصّ بالبكاء ، ثم واصل الكتابة :

« وسأفرك لك يا جدى الدخان ، وأسأل رضاك ، وإن خالفت لك كلمة فاضربنى ، وإن تبين لك أننى لن أجد عملا لديك ، فائذن لى بالعمل فى مسح أحذية متعهد القرية ، أو أن أرعى الماعز بدلا من فيدكا .

« أجل يا جدى العزيز ! ليس لى من منقذ سواك . لقد حاولت الفرار مرة إلى قريتك ؛ لكننى عدلت عن ذلك ، لأننى لا أملك حذاء أقى به قدمى من الصقيع . . خذنى يا جدى وكن على ثقة بأننى إذا ما بلغت الرشد فسأقابل جميلك بالمثل ، وسأعمل على إعاشتك ، ولا أدع أحداً يسىء إليك ، وإن توفاك الله ، فإننى سأصلى لروحك كما

أصلى لروح أمى .

« إن موسكو لمدينة كبيرة ، وبيوتها فخمة وخيولها كثيرة ؛ لكننى لا أجد فيها خرافاً ، وكلابها غير مؤذية ، وأطفالها لا يطوفون بالأحياء فى ليالى الأعياد ؛ ولا يسمح لهم بالاشتراك فى التراتيل الكنسية .

« ورأيت مرة فى واجهة حانوت ، صنانير بعصيها ؛ يستطيع المرء أن يصطاد بها أية سمكة كانت ولو بلغ وزنها الرطل. وشاهدت فى بعض المخازن أسلحة مختلفة الأشكال بديعة الصنع ، جميلة المنظر ؛ والله يعلم كم تساوى من مئات الروبلات . . وشاهدت فى بعض حوانيت اللحامين عدداً كبيراً من الدُرَّاج ، والأرانب ، ودجاج الأحراج ، والعجيب أن الناس لا يستفهمون أبداً عمن اصطاد هذه الطيور ! . .

« جدى العزيز . أرجوك أن تتذكرنى وقت أن ينصب السادة شجرة عيد الميلاد ، واقتطف لى منها جوزة مذهبة ، واحفظها فى صندوق أخضر؛ والسيدة أولغا إيغناتيفنا لا تعارضك إذا علمت أن الجوزة لى » .

* * *

وجه الطفل نظره مرة أخرى صوب النافذة وعاودته الذكريات ، وقت أن كان يذهب مع جده لجلب شجرة عيد الميلاد ، فيالها من أيام طيبة ! كانا يذهبان معاً إلى الغابة ، وسط الثلوج ، فيشعل جده غليونه ، ويستنشق الدخان طويلا ، ويضحك من حفيده الذى يرتعش من البرد ، فى حين أن الشجيرات الفتية المكتسية بالصقيع تقف جامدة لا تدرى من منها سيكون نصيبه الموت . . وإذ يمر بهما أرنب منطلق كالسهم ، يصرخ جده بأعلى صوته : أمسك ، أمسك . . آه يا ذنب الشيطان ! . .

وبعد أن يقطع جده الشجرة ، يجرها إلى بيت سادته ، وهناك يقبل الكل على تنظيفها وترتيبها ، وتكون أكثرهم اهتماماً بها السيدة أولغا إيغناتيفنا ، حبيبة فانكا .

كانت أم فانكا تخدم فى هذا البيت ، وكانت السيدة أولغا تقدم لطفل خادمتها اللبن ، وتعلمه القراءة والكتابة والعد حتى المائة ، والرقص أيضاً ، وحين وافى أمه الأجل أحالت السيدة أولغا الطفل اليتيم إلى العمل مع جده فى المطبخ . ومن ثم نقل إلى موسكو ليعمل عند صانع الأحذية « المعلم إلياخين » .

وتابع فانكا كتابة رسالته إلى جده ، قال :

« احضر إلى موسكو ياجدى العزيز ، أتوسل إليك من أجل المسيح أن تنقلنى من هذا المكان ، أشفق على هذا اليتيم التعس . إن كل من فى هذا البيت يضربنى ؛ وأنا أشتهى الطعام ، وأكاد أهلك من الضجر : ولا أنفك عن النحيب ، وذرف الدموع . وحدث مؤخراً ، أن ضربنى معلمى على رأسى بقالب الحذاء ، فوقعت على الأرض ولم أستطع النهوض ، إلا بكل مشقة آه . . لقد ضيعت حياتى ! . . إنها لأسوأ من حياة الكلاب ! . .

« سلامى إلى كل من هيلين ، وإيغور الأكتع ؛ والسائق ساشا ، وأرجوك ألا تعطى أحداً " مزيكتى " . . احضر يا جدى وابق لحفيدك المطيع إيفان جوكوف » . . .

وطوى فانكا الرسالة ، ووضعها فى مغلف كان ابتاعه بكوبيك واحد . . وبعد أن أعمل فكره قليلا ، غمس الريشة فى الدواة ، وكتب على الغلاف :

« إلى قرية جدى ! »

ثم حك رأسه بطرف الريشة ، وأضاف إلى العنوان :

« كونستانتين ماكاريتش »

كان سرور فانكا عظيماً لأن أحداً لم يزعجه فى أثناء كتابة رسالته هذه ، فهب من مكانه ، واختطف قبعته ، ووضعها على رأسه ، وهرع

إلى الشارع : فى قميصه : ساهياً عن لبس معطفه .

كان رواد حانوت اللحام الذين قابلهم فانكا بالأمس قد أحاطوه علماً أن الرسائل تلقى عادة فى صناديق البريد ، ثم تجمع منها وتوزع إلى جميع أنحاء العالم ، على زحافات تجرها خيول مطهمة ، ترن فى أعناقها الأجراس ، ويقودها سواقون سكارى وهكذا أقبل ڤانكا على أول صندوق للبريد ، وأدخل رسالته الثمينة فى شقه . .

وعاد الصبي إلى البيت ، واستلقى على فراشه تهدهده الأمانى العذبة ، وبعد ساعة من الزمن ، أغمض جفنيه ، واستسلم إلى سلطان الكرى ، فشاهد فى نومه جده يجلس على سطح الموقد وقد تدلت قدماه ، وأمسك بيده رسالة ڤانكا يقرؤها على طاهيات البيت وخادماته . . فى حين يسير الكلب « فيون » إلى جانب الموقد ، وهو يهز ذنبه . .

فى الحمَّام

كان سيدٌ بدين يغتسل فى الحمَّام ، وإذ لمح من خلال الضباب رجلاً طويلاً نحيفاً ، له لحية يهودية ، ويعلق على صدره صليباً صاح فيه قائلا : أيها الحمامى ؟ . . ايتنى بالماء الساخن . فأجابه الرجل : ليس من شأنى جلب المياه الساخنة يا سيدى ، فإننى لست بحمامى ، وإنما أنا حجّام ، فهل تود استعمال أقداح الحجامة ؟ . . . ارتاح السيد البدين لهذا السؤال ، وألقى نظرة عجلى على وركيه الحمراوين ، وأجاب : هات أقداح الحجامة ، ولعل فى استعمالها بعض الفائدة . . فأسرع الحجّام إلى غرفة الاستراحة . وعاد بأدواته ، ولم تمض خمس دقائق ، حتى كانت عشرة أقداح عالقة على صدر السيد وظهره .

وبينما كان الحجَّام يضع القدح الحادى عشر ، قال لزبونه : أتذكر يا سيدى وقت أن زرتنا يوم السبت الماضى وقد طلبت منى بعد أن اغتسلت أن أنزع الثآليل عن أصابع قدميك ؟ . . أنا الحجام ميخايلو . . أتذكر حين سألتنى عن الفتيات الخاطبات ؟ فأجابه : أجل أذكر ذلك ، وما الذى تريده ؟ . . قال : لا أريد شيئاً ، لكننى أود إطلاعك على ما أضمره لك من ملامة يا سيدى . . برغم ما فى ذلك من تعرض لوقوعى فى الخطيئة وأنا مقبل على تناول القربان ، فما أود أن أبوح به إليك يا سيدى هو أن فتياتنا فى الماضى كن يطمحن فى الزواج من رجل قوى ، صارم ، ثرى ، متدين . وأما فتيات هذه الأيام فينتهجن طرقاً معوجة شائكة . إنهن يبحثن عن الرجال المتعلمين فقط . قدم لهن رجالا متعلمين ، والويل لك إن عرفتهن إلى رجال من التجار أو الموظفين ! . .

والمتعلمون يا سيدى على أصناف . فمنهم من يبلغ أعلى المناصب ، ومنهم من يظل طيلة حياته يخبر الأوراق ثم يموت فقيراً معدماً غير مدخر ثمناً لنعشه . ومن هؤلاء الناس ، وعددهم لا يستهان به ، شاب متعلم يعمل فى دائرة البرق ، تراه يحذق كل الأمور حتى اختلاق البرقيات ! لكنك إذا نظرت إليه ، لا يسعك إلا أن تتألم وتأسى لبؤسه ، وهو من زبائن هذا الحمّام الذين يغتسلون بالماء دون الصابون !

وهنا قاطعه رجل بصوت جهورى فيه بُحة ، وكان يجلس على المصطبة فى الجوار . وقال :

ــ عامل البرق هذا فقير لكنه شريف ، وإننا لنفخر بمثل هؤلاء الناس ونعتز ، فالعلم مع الفقر دليل على سمو النفس ، أفهمتِ ذلك أيها الجاهل ؟

تطلع ميخايلو بطرف عينه إلى مصدر الصوت فرأى رجلاً هزيلاً ، برزت عظام جسمه بروزاً واضحاً فبدا صدره وظهره وكأنهما مؤلفان من جلد وأضلع فقط ، وكان شعره الطويل يتدلى على وجهه ، فغطاه ولم تظهر منه سوى عينين سددتا إلى الحجّام وهما تحملان كل ما فى النفس من حقد وازدراء .

فتمتم ميخايلو قائلا: أأنت منهم! أأنت من أصحاب الشعر الطويل؟! .. ومن ذوى الأفكار ؟ . . يا للفظاعة لقد تكاثر هؤلاء القوم فتعذر اقتناصهم كلهم . . هه . . إن الأحاديث المسيحية تزعج هذا الهيكل العظمى . . إنه يتحمس للمتعلمين ؟ . .

ثم تلفت الحجّام إلى زبونه وقال له : إن فتيات اليوم يملن إلى مثل هذا الرجل . . أرأيت أمراً أبشع من هذا الأمر ؟ لقد دعتنى فى الخريف الماضى ابنة أحد القسس وقالت لى : ميشيل ــ وربات البيوت اللائى أخدمهن فى زينتهن ينعتننى بهذا الاسم ــ هل لك أن تبحث لى يا ميشيل

عن عريس من أصحاب الأقلام ؟ ! ولحسن حظها كنت أعرف أحدهم واسمه بورفيرى إيميليانيتش ؛ كان يقبع دائماً فى إحدى الحمارات ويخيف روّادها بنشر أسمائهم فى الصحف . وكان كلما أتاه صاحب الحمارة ليقبض ثمن الفودكا ، همس بورفيرى فى أذنه قائلا : أتطلب منى دراهم ؟ ألا تعرف مَن أكون ؟ . لا تنس أننى قادر على أن أعلن عنك فى الصحف أنك من كبار المجرمين ! . . ولما كان بورفيرى هذا شاباً شبه عار ، رثّ الثياب ، سهل علىّ إغراؤه بمال ابنة القسيس . أطلعته على رسمها ، واقتدته إليها بعد أن استعرت له ثياباً جديدة . غير أن الحظ لم يواته ؛ فلما رأته الآنسة أشاحت بوجهها عنه قائلة : إننى لا أرى فى محيّاه أمارات الحزن والألم ! . . والواقع أن ابنة القسيس نفسها لا تعرف مَنْ مِن الرجال تريد .

وعاد الرجل صاحب الصوت الذى فيه بحة ، وعلّق على حديث ميخايلو قائلا : إنك تفترى على الصحافة أيها الخسيس . فأجاب الحجام : أتنعتنى بالخسيس ؟ . . إنه لمن حسن طالعك أننى مقبل على تناول القربان وإلا لأسمعتك كلاماً جارحاً . . ألعلك من طبقة الكتاب أيضاً ؟ . . . قال : كلا ، لكننى أطلب منك ألا تتحدث عما لا تدرك كنهه . . . لقد كان الكتّاب فى روسيا كثيرين ، وقدموا لبلادهم خدمات جليلة ، بل إنهم ثقفوا العالم قاطبة ؛ ولذا يجب علينا أن نذكرهم مفتخرين بهم لا شاتمين ؛ وإننى أعنى بهؤلاء الكتاب لا العلمانيين فحسب بل الروحيين أيضاً . . فأجاب الحجام : إن الكتّاب الروحيين لا يعنون بأمور كالتى تدافع عنها . .

قال : حقاً إنك لا تفقه ما تتفوه به ، إن ديمترى روستوفسكى ، وإينوكينتى خرسونسكى ، وفيلاريت موسكوسكى ، وغيرهم من رؤساء

الكنيسة ساهموا مساهمة فعالة فى نشر العلوم والمعارف .

فنظر ميخايلو بطرف عينه إلى خصمه ثانية ثم حوّل وجهه نحوه بسرعة وصاح فيه : يبدو لى أنك من أولئك يا سيدى ! من ذوى الأفكار ! وليس من العبث أنك قد أطلت شعر رأسك ! . . أجل إننا أدرى بهذه الأمور ؛ وسنريك الآن من تكون !

ثم نهض الحجَّام وقال لزبونه : دع يا سيدى الأقداح على جسمك ، وسأعود إليك على وجه السرعة . . وخرج ميخايلو يجر وراءه سرواله المبتل ، وذهب توًّا إلى الباب الخارجى ، حيث كان يجلس رجل قزم يبيع الصابون ، خاطبه قائلا : سيخرج من الحمام الآن رجل طويل الشعر ، فعليك أن تراقبه ، إنه يحرض المستحمين ، أفهمت ؟ . . إنه من ذوى الأفكار . . أسرع فى طلب نازار زاخاريتش ! . . فأجابه القزم : أخبر الصبية بالأمر . فالتفت ميخايلو إلى الصبية الواقفين عند ألبسة المستحمين ، وقال لهم : سيخرج من الحمَّام الآن رجل طويل الشعر ، إنه يبث فى الناس روح التمرد ! . . تتبعوا أثره وأسرعوا فى إخبار صاحبة الحمام لكى تبعث فى طلب نازار زاخاريتش ليحقق معه ! . . إنه رجل خطر ، يتلفظ بعبارات مخيفة . . إنه من ذوى الأفكار ! . .

فما إن سمع الصبية هذا الكلام حتى ارتسمت على محيَّاهم علامات الارتباك ، وقالوا للحجَّام : أين هو هذا الرجل ذو الشعر الطويل ؟ إننا لم نر بين الزبائن رجلا ينطبق عليه وصفك هذا ، فالذين نزعوا ألبستهم هنا هم ستة أشخاص : تتريان ، وتاجران ، ووجيه ، وشماس . . فلعلك تقصد بصاحب الشعر الطويل أبانا الشماس ؟ فأجاب ميخايلو : إننى أعنى ما أقوله ، فلا تحاولوا تضليلى أيها الشياطين . . ثم نظر إلى ألبسة الشماس ، ولمس رداءه الكهنوتى ، فساورته الشكوك وسأل الصبية : بِمَ تميزون صاحب هذه الألبسة ؟ فأجابوه : إنه نحيف ، أشقر الشعر ،

له لحية كثة ، ويسعل كثيراً . . فامتقع لون الحجّام لدى سماعه هذا الجواب ، وراح يوبخ نفسه قائلا : إننى هاجمت شخصية قدسية لها مكانتها فى الكنيسة فيا للخطيئة . . وما عسى أن أعمل الآن وأنا مقدم على تناول القربان . . المغفرة يا إلهى لقد أخطأت وعلىّ أن أذهب إلى أبينا الشماس أسأله السماح .

تألم ميخايلو لما حدث له تألماً شديداً : وعاد أدراجه إلى داخل الحمام بخطوات غير متوازنة ، فشاهد الشماس وقد أفجّ رجليه إلى جانب الصنبور وهو يصب الماء الساخن بالطاس على جسمه ، فاقترب منه وخاطبه بصوت باك : « أسألك السماح أيها الشّماس ، من أجل المسيح سامح هذا الشقى ! »

فالتفت إليه الشماس مستغرباً وقال : علام أسامحك ؟ . .

فزفر الحجام زفرة طويلة ، وجثا عند قدمى الشماس وقال :

— لقد ظننت . . أن فى رأسك أفكاراً ! . .